

الحلقة (١٩)

وقفنا في اللقاء السابق عند قول الله جل وعلا: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ وبينا أقوال المفسرين من الصحابة ومن بعدهم في تعيين الصلاة الوسطى، وذكرنا أن الذي يشار إليه هو تفسير النبي ﷺ، فليس بعد تفسيره ﷺ تفسير.

❶ وقد عينها ﷺ بأنها صلاة العصر، قلنا أن هناك استثناءات ستأتي وهي وثيقة الصلة بالآية التي نحن بصددتها ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

❷ وهذا هو الاستثناء: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ الآية ٢٣٩.

❧ مناسبة هذه الآية وبين الآية السابقة:

مناسبة جد واضحة، فالمناسبة بأنه تعالى لما أمر بالقيام له وحده في الصلاة، بيّن هنا بعض الاستثناءات وذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً، ويبيّن أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد بحال. إذاً الأصل أن يكون الإنسان قائماً في صلاته، ونعلم يقيناً أن القيام ركن من أركان الصلاة، ولكن هذا القيام قد لا يستطيع الإنسان المسلم أن يقومه على الصفة المطلوبة أو أن يقيمه على الصفة المطلوبة، فعندئذ شرع الله عز وجل وهو المشرع سبحانه شرع لعباده في حالات معينة كحالات الخوف وسنعرّف بعد كيف هذا الخوف أي ما هو المراد بالخوف مما سيرد بعد، إذاً القيام الأصل أن المسلم المصلي يقوم في صلاته، لكن حالات سنعرّفها قد يعذر فيها الإنسان من القيام.

❧ مفردات الآية:

❧ قوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: من الخوف الذي هو الفزع، ونحن نعلم أن الخوف حالة تعتري النفس البشرية من مخوفٍ ما، سواءً أكان هذا المخوف محسوساً أو معقولاً، فأما المحسوس فكان يكون هناك عدو وهذا أقصى ما يتصور في الخوف أن يكون هناك عدو يترصد بي أو حيوان ضار مثلاً، هذا فيما يتعلق بالمحسوس.

أما المعقول أو المعنوي الخوف الذي قد يعتري الإنسان من أمورٍ قد تكون حقيقية وقد تكون مظنونة، وأكثر ما يحول في العقل ما هي إلا خيال لا حقيقة له، في الحديث الصحيح: (إياكم والظن

فإن الظن أكذب الحديث).

❧ قول تعالى: ﴿فَرِجَالًا﴾: أي فصلوا رجالاً، الرجال جمع راجل أو رجل، من قوله رَجُلُ الإنسان يَرْجُلُ رَجَلًا إذا عدم المركوب ومشى على قدميه، فهو رَجُلٌ و راجِلٌ و رَجُلٌ بضم الجيم وهي لغة أهل الحجاز، يقولون: مشى فلان إلى بيت الله عز وجل حافياً رَجُلًا، إذاً فلفظة رجالاً ليس المقصود منها -وإن كان عامة المسلمين يفهمها على حقيقتها القرآنية الشرعية فرجالاً- ولكن بعضاً قد يفهم فرجالاً

ولاسيما ممن لم يكن على دراية بكتاب الله عز وجل، إذ لا يتصور أن يقال: { فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا } فرجالاً بمعنى رجل لا مفهوم له هنا، فإذا فرجالاً سواء كنتم راكبون دواب وعدم راكبيها، (فرجالاً) أي: فصلوا رجالاً، ورجلاً لا على معنى أنه رجل الذي هو قسيم الأنثى ولا قسيم الطفل أو الغلام، إنما رجلاً بمعنى أنه يمشي راجلاً.

❁ الأحكام المستفادة من الآية:

◀ اختلف العلماء في الخوف الذي تجوز فيه الصلاة رجالاً وركباناً

❁ فقال الشافعي رحمه الله تعالى: "هو إطلال العدو عليهم فيتراءون معاً والمسلمون في غير حصن"، يعني يخرج العدو فجأة والمسلمون غير متحصنين فعندها حان وقت الصلاة فيصلي من كان راكباً ومن كان راجلاً كل على هيئته، ونعلم أن هناك صلاة خاصة سميت بصلاة الخوف، وهي الواردة في قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ فإذا هذه صورة، وهي جاءت في سورة النساء، وما معنا أمر أو إشارة يسيرة بدقة بحيث لا يتصور بعد تلك الدقة.

❁ وذكر ابن القيم رحمه الله وغيره أن لصلاة الخوف خمس عشرة هيئة أو صورة.

❁ وقال ابن عبد البر المالكي رحمه الله: فالحال التي يجوز فيها للخائف أن يصلي راجلاً أو راكباً مستقبل القبلة أو غير مستقبلها وهو حال شدة الخوف.

فإذا ابن عبد البر كعادته وهو الإمام الدقيق الذي يجمع أشتات أقوال العلماء يقول إن الخوف إذا كان شديداً فيجوز للإنسان أن يصلي كيفما اتفق الأمر، وقلنا قبلاً قول الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ وذكرنا قبلاً أن صلاة الخوف مستقلة بسورة خاصة وهي سورة النساء وهو قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾، وقد ذكرنا قبلاً كيف أن بعضهم كابن القيم جعل لصلاة الخوف خمس عشرة صورة، هذا إذا قول ابن عبد البر.

❁ وفرّق الإمام مالك رحمه الله تعالى بين خوف العدو المقاتل وبين السبع ونحوه من جمل سائر أو سيل وما استحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت إن وقع الأمن، إذا الإمام مالك يفرق بين الخوف الذي أدت فيه الصلاة لا تعاد وبين الخوف الذي أدت الصلاة فيه تعاد، فقال: إذا كان العدو المقاتل موجوداً فإذا هذا الخوف خوف لا يجب معه إعادة الصلاة، أما الخوف الذي يتصور زواله في أية لحظة كالخوف من السبع والجمل السائر أو السيل مثلاً فإن هذا الخوف يمكن أن يعاد معه الصلاة.

❁ وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾: أي ارجعوا إلى ما أمرتم به من إتمام الأركان، يعني الحالة الطارئة تقدر بقدرها، ثم إذا زالت يعاد الأمر كأن شيئاً لم يكن، فإن أبيح للإنسان أن يصلي كيفما اتفق الأمر فذلك لأمر طارئٍ وجب هذا التصرف، أما إذا زال الخوف فلا يمكن أن يتصور إقامة الصلاة كيفما اتفق، بل لا بد من إقامتها بشرائطها وأركانها وواجباتها.

﴿ قوله تعالى: **﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمُ ﴾**: قيل معناه اشكروه على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء ولم تفتكم صلاة من الصلوات، وهو الذي لم تكونوا تعلمونه، فالكاف في كما بمعنى الشكر، تقول افعل بي كما فعلت بك كذا مكافئة وشكراً. و { مَا } في قوله تعالى: **﴿ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾** مفعولة ب علمكم، علمكم الذي ما لم تكونوا تعلمون.

إذاً هذه بعض الجزئيات اليسيرة المتعلقة بهذه الصلاة الطارئة، أي لأن طارئ طراً عليها، سواء كان عدو مقاتلاً أو سبع ضارياً المهم أن الصلاة تؤدي على أي وجه كان، ولعل هذه الآية توطئة لآيات قادمة في سورة النساء، وهي الآيات التي عرفت بآيات صلاة الخوف، ولا يستغرب هذا فالقرآن كله وحدة متكاملة متناسقة، والسورتان أعني البقرة والنساء كلتاهما مدنية، فإذا هنا توطئة وإشارة يسيرة وهناك التفصيل وهذا واقع في كتاب الله عز وجل على أكثر من قصة وعلى أكثر من حكم.

❁ قول الله تعالى: **﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٤٠)**. هذه الآية منسوخة، وناسخها قول الله عز وجل: **﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا... ﴾**.. تذكرون في حلقات مضت أننا قلنا إن القاعدة والأصل أن الناسخ يكون متأخراً عن المنسوخ، بيد أن هذه الآية جاءت الآية ٢٤٠ من سورة البقرة جاءت وهي منسوخة جاءت متأخرة عن الناسخة.

لذا ذهب جماعة من المفسرين في تأويل هذه الآية أن المتوفى عنها زوجها كانت تجلس في بيت المتوفى عنها حولاً و ينفق عليها من مال زوجها الراحل المتوفى عنها، ولا تخرج من المنزل، فإن خرجت لم يكن على الورثة جناح في قطع النفقة عنها، فنسخ هذا المكث في البيت حولاً كاملاً إلى الأربعة أشهر وعشر ليال، وأن النفقة التي هي مفتوحة هكذا جاءت بحق ثابت مفروض تولى الله عز وجل قسمته، فلا يستطيع أحد كائناً من كان إلا من شقي وأراد الله له عز وجل الخاتمة أو العذاب الأليم فيتدخل في المواريث، وإلا المواريث والإرث أمر تولى الله عز وجل قسمته، فلا يستطيع أحد أن يضيف فيه قيد أنملة ولا أن يأخذ منه قيد أنملة، فإذا هذا قول جماعة من المفسرين.

❁ وفي السكنى خلاف بين العلماء أنفسهم

في السكنى يعني في السكن خلاف للعلماء، عن ابن الزبير قال قلت لعثمان رضي الله عنه هذه الآية التي في: **﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ... ﴾** إلى **﴿ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ﴾** قد نسختها الآية الأخرى الآية السابقة **﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾** فلم تكتبها؟ قال: تدعها يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه.

فتأمل هذا الأثر عند البخاري، هذا ابن الزبير قال لعثمان رضي الله عنه الذي جهز جيش العسرة والذي جمع الناس على هذا القرآن العظيم بمصحفه الإمام وكما قال ﷺ: **(ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم)** هذا هو عثمان رضي الله عنه لا يستطيع أحداً إلا أن يرضى عنه نظير ما قدم للإسلام والمسلمين فرضي الله عنه وأرضاه، فإذا ابن الزبير كأنه يستغرب، وحق له أن يستغرب لأن الآية المنسوخة جاءت في النهاية على خلاف القاعدة، والآية الناسخة جاءت في البداية، كيف هذا؟ فقال عثمان رضي الله عنه بعد أن قال له الزبير فلم تكتبها؟ قال: تدعها يا ابن أخي، يعني أتركها، يعني لو أنت في مكاني ستركتها، لا أغير شيئاً منه من مكانه، أبدأ، دور عثمان أنه رضي الله عنه كان جامعاً ومشرفاً عاماً على الحفاظ على كتاب الله عز وجل وهو رضي الله عنه وغيره إلى قيام الساعة من جملة الداخلين في قول الله عز وجل: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**، إذ بحفظ الله عز وجل لكتابه العظيم أنه يهيئ له حفظة يحفظونه في الصدور ويحفظونه في السطور، فإذا انضم الحفظان لم يستطع أحد إلا أن يتذوق هذا الكتاب العظيم على حد قول الله عز وجل: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾** وعلى حد قول الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا وَعَدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾**.

إذاً من حفظ كتاب الله عز وجل ما قام به الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما قام به غيره رضي الله عنه من الصحابة ومن بعدهم إلى ساعة الناس هذه، فلم يغير شيئاً لأن الرسول ﷺ ما لحق بالرفيق الأعلى إلا وقد رتب المصحف كله من أوله حتى آخره.

❶ قال القاضي عياض اليحصبي رحمه الله تعالى والإجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشراً.

القاضي عياض يؤكد ما هو موجود من أن عدة المتوفى عنها زوجها: بدل الحول قبل النسخ وبدل المكث سنة كاملة؛ أربعة أشهر وعشراً، وذكرنا عند وقفنا مع تلك الآية الكريمة كيف أن هناك حكماً ثرائعاً وتؤخذ من ضرب هذا الأجل.

❷ في قول الله عز وجل **﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾** قرأ نافع وابن كثير والكسائي وشعبة **﴿وصية﴾** بالرفع على الابتداء وخبره لأزواجهم، وقرأ الباقون **﴿وصية﴾** بالنصب وذلك حملاً على الفعل أي: فليوصوا وصية.